خامساً: الخيل في الأدب العربي:

أ- الخيل في الشعر العربي:

لقد كان الحصان على مر التاريخ رفيق العربي في تنقله، وحربه، وصيده، فعليه يحارب أعداءه، وبه يهاجم ويتصيد، وعليه يسرح ويمرح، ويقطع الفيافي والقفار. فهو عدته في الحرب، ومنجاته عند القتال، وبغيته عند الغنيمة، وزينته في السلم، وعلى ظهره يصيد الوحوش والحيوانات، ويسابق ويلهو..

لذا احتل شعر الخيل قسماً كبيراً من الشعر -وخاصة الجاهلي-لقد كانا وفيين يتقاسمان صروف الحياة، ويتعرضان لنفس المخاطر، ويتذوقان النشوة نفسها في غمار المعارك، وكانت النصرة والعزة ثمرة لتعاونهما الوثيق، وشجاعتهما، وجلدهما، وبراعتهما.

ولم يترك الشعراء جزءاً من أجزاء جسم الفرس ولا موضعًا فيه إلا وصفوه، فقد وصفوا أنسابه وألقابه وألوانه وسرعته وسيره وشجاعته ووفائه ورقته وحركاته وصفاته وجماله وخلقه وأوصافه وسمنه وهزاله وأصوله وصهيله ورحلاتهم معه إلى القنص ومطاردتهم للصيد وتشبيهه ببعض الحيوانات كالذئب وغيره.

لأن الفرس في عين الشاعر حسناء تتخايل، وفرس تفترس الأرض، وترهب العدو، وحصان تحميه وتحصنه، وصديق حميم.

يقول الجاحظ عن وصف الشعراء العرب القدامى للفرس: «يصفونه بالجودة والكرم والوسامة والعتق والروعة، فيقولون: فرس جواد، وفرس كريم، وفرس وسيم، وفرس عتيق، وفرس رائع» أ. هـ.

ويعبر شداد بن معاوية العبسي والد عنترة عن حبه لفرسه (جروة) وعن أهميتها في حياته، فهو لا يبيعها مهما بلغت به الحاجة، ولا يعيرها لأعز عزيز،

ولايتركها نهباً للمهار حتى لا تنضي قوتها، فإذا هبت النكباء الحرجف، جاد عليها بما يدفئها ويحميها من قسوة البرد، وإذا حان وقت الصيف غذاها بكل ما هو طيب وشهي، وخصص لها ست نوق كريمة غزيرة اللبن لتشرب من لبنها وتستمتع بحليبها.

فـــمنْ يكُ ســـائلاً عني فـــإني
وجَـــرْوةُ لا تُبـــاع و لا تعـــارُ
مُـــقَـــربةُ الشـــتـــاءِ ولا تراها
وراءَ الحي تتـــبـــعـــهُـــا المِهـــارُ
لهـــا بالصـــيفِ آصـــرةُ وجل
وستٌ من كـــرائمـــهـــا غِـــزارُ

وقد يمر العربي بضيق مادي وبحالة من العسرة وقلة ما في اليد، وقد يفكر ببيع كل ما يملك، غير أنه لا يفكر ببيع فرسه؛ لأنه لا يستطيع أن يشتري بثمنه ما هو أفضل منه، ويعبر عن ذلك الأجدع بن مالك الهمداني أروع تعبير حيث يقول:

نقـفـو الجـيـاد من البـيـوت ومن يبع
فـــرســـاً، فليس جـــوادنا بمبـــاع

وعندما رثى مالك بن الريب نفسه بكى وتذكر ثلاثته الذين سيفقدونه بعد موته، ولم ينسَ فرسه الكريم صديق شدته، وأنيس فراغه.

تذكـــرتُ من يبكي علي فلم أجـــد
سِـــوَى الســـيفِ والرمح الرديني بَاكـــيـــا
وأشـــقـــر خنذيذ يـجـــر عـــنـــانه
إلى الماء يتـــرك لـه الموت ســـقـــيـــاً

وقد ارتبطت الخيل في حياة العرب بالفخر والشجاعة والإقدام ولولاها لما كانت بطولة ولا شجاعة ولا إقدام. يقول طرفة بن العبد:

سائلوا عنا الذي يعرفنا
بقوانا يوم تحلاق اللمم
يوم تبدي البيض عن أسواقها
وتلف الخيل أعراج النعم

ولقد وصف الشعراء صهيل خيلهم الذي يبعث في نفوسهم الحمية والشجاعة. ويدخل في نفوس أعدائهم الرعب والفزع. وصاروا لا يطربون لأصوات سوى ذلك الصهيل. يقول عنترة بن شداد العبسي:

ألاغنيا لي بالصهيل فإنه
سماعي وقراق الدماء ندامي

وكان للشاعر العباسي ابن الزيات فرس أشهب طلب الخليفة المعتصم أن يعطيه هذه الفرس، فقال الشاعر هذه الأبيات رثاءً على بعد فرسه المحبوبة عنه.

كيف العزاء وقد مضى لسبيله
عنا فؤود الأحم الأشهب
منع الرقاد جوى تضمنها لحشا
وهوى أكابده وهم منصب

عندما سمع الخليفة هذه الأبيات رد إلى الشاعر فرسه.

وفي الفخر نرى لبيد بن ربيعة يصف فرسه وكيف يحمله وسلاحه عند البكور، ويضع لجامها على كتفيه استعداداً للركوب، حتى إذا ما تقدم المساء وأقبل الليل نزل بها إلى السهل، فاشرأبت بعنقها ترفعه في كبرياء كأنها جذع النخلة العالي:

obeikandl.com

ولقد حميت الخيل تحمل شكتي
فرط وشاحي إذ عدوت لجامها
حتى إذا ألقيت يداً في كافر
وأجن عورات الثغور ظلامها
أسهلت وانتصبت كجذع منيعة
جرداء يحصر دونها جُرامها

والشاعر امرؤ القيس أفضل من أعطى شكلاً للفرس النجيبة، وهو أول من شبه تركيب الخيل وصفاتها بالظباء والذئاب والنعام والثعلب، حيث يصف فرسه في بيتين من معلقته فيقول:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة
وإرخاء سرحان وتقريب تتفل
كميت يزل اللبد عن حال متنه
كما زلت الصفواء بالمتنزل

فهو قد شبه خاصرة فرسه بخاصرة ظبي لظمورها، وعدوه بعدو الذئب، وشبه ساقيه بساقي النعامة وذلك من ناحية الانتصاب والطول وسرعة الجري، وتقارب أقدامه أثناء العدو بتقريب الثعلب.

وللحصان مشاعر وآحاسيس، وبين الإنسان والحصان علاقة حميمة، فهو يغني لحصانه ويتمتم له قريبًا من إذنه، ويستمع له، فهذا فرس عنترة يميل نحوه ويشكو وقع السهام على صدره:

يدعون عنتر والرماح كأنها
أشطان بئر في لبان الأدهم

obeikandl.com

مـــا زلت أرمـــيـــهم بغـــرة وجـــهـــه

ولـبـــانـه حـــتـى تســـربل بالدم

فـــازور مـن وقـع الـقـنـا بـلـبـــانـه

وشكـا إلـي بعـــبـــرة وتحـــمـــحـم

لـو كـــان يدري مـــا المحـــاورة اشـــتكى

ولـكـان لـو عـلـم الـكـلام مـكـلـمـي

والفارس العربي يؤثر جواده على نفسه وقريبه وحبيبه ويفديه بما يملك، وقد يضحي بحياته في سبيل أن يبقي على حياة فرسه، وكيف لا يضحي لأحب حبيب وأدنى قريب، وفي ذلك يقول ثعلبة العبدي في فرسه عَريب:

إن عَـــريبـــاً وإن ســـاءنـي

أحبُ حـــبـــيبٍ وأدنـى قـــريب

ســـأجـــعـل نفـــسـي له جُـنـةً

بشـــاكي الســـلاح نهـــيبٍ أريب

والشواهد كثيرة على إعزاز الخيل وإكرامها، وإيثارها بالطعام والشراب، وسقيها اللبن وتدفئتها، والعرب يحرصون كل الحرص على خدمتها وتنظيفها وعلاجها، وما إلى ذلك من صنوف الإعزاز والإكرام والعناية، ولذلك فهم لا يعيرونها لأحد، ولا يبيعونها مهما غلا ثمنها، ورغم حاجتهم إلى المال، وقد يبالغ بعضهم بأن يجعل بيع فرسه مستحيلاً مهما نزلت به من أحداث وحاجات، يقول القتال البجلي في فرسه الشهباء:

لا تقـصـيـا مـربط الشـهـبـاء منتـبـذاً

بـخـلـوةٍ إن ريـب الـدهـر مـــــرهـوب

وقـــــــربـاهـا إنـي لـن تمس يـدي

يداً بـبـــيـعٍ مـــا حـنـت النـيـبُ

ب- الخيل في الأمثال العربية:

من طول معايشة العرب للخيل، وجدوا أن الله -عز وجل-أودع فيها من الفطنة والمعرفة، ووهب لها من الغرائز والعواطف ما يشبه غرائز الإنسان وعواطفه؛ لذا نجد أن الخيل حظيت بنصيب الأسد في أمثالهم، فقد تمثلوا بـ أعمارها، وأعضاء جسمها، وطباعها، وسرعتها، وجريها، وذكائها، وألوانها وغير ذلك، ومن تلك الأمثال:

١- (لكل جواد كبوة ولكل عالم هفوة)

الكبوة: العثرة. ويضرب هذا المثل لمن يكون الغالب عليه فعل الجميل، ثم تكون منه الزلة. وقيل: يضرب مثلاً للرجل الصالح يسقط السقطة.

٢- (أطوع من فرس)

للدلالة على وفاء الخيل لأصحابها، فالعرب تعرف خيلها، وخيلهم تعرف فارسها وزجره، والفرس يضرب به المثل في الانقياد لصاحبه.

٣- (الخيل تجري على مساويها)

معنى المثل أن الخيل وإن كانت فيها أوصاب وعيوب فإن كرمها وعتقها يحملها على الجري، وكذلك الحر الكريم من الرجال يحتمل المؤن ويحمي الذمار وإن كان ضعيفاً. وقيل: إن هذا المثل يضرب في من يستعمل كرمه على كل حال.

٤- (أشد من فرس)

ومعنى ذلك أن الفرس شديدة سريعة في عدوها وقوية.

٥- (هما كفرسي رهان)

أي لا يمكن تفضيل أحدهما على الآخر، ويضرب لاثنين يستبقان إلى غاية واحدة فيستويان في الجد أو الفضل.

٦- (أسرع من فريق الخيل)

ومعنى ذلك أن الحصان الذي يسابق قد فارق الخيل وانفرد عنها.

٧- (أبصر من فرس)

فقد يرخي الفارس عنان فرسه في الطريق غير الواضح والظلام الشديد.

فيسير به الفرس ويتخطى المهاوي والحفر والأحجار التي لا يراها الراكب. ويعتقد أن ليس في الدواب أبصر من الفرس حيث لو أُجري في الضباب الكثيف ثم مد في طريقه شعرة لوقف عند انتهائه إليها.

٨- (الخيل أعلم بفرسانها)

ومعنى هذا المثل أن الخيل تعرف أصحابها وفرسانها وتميز من يُحسن الفروسية ممن لا يحسنها، وهذا المثل يضرب في العلم بالأمر.

٩- (أتبع الفرس لجامها)

يضرب في الحث على استكمال المعروف وإتمام الإحسان والصنيع.

١٠- (أجرى من فرس)

يدل على سرعة جري الخيل.

١١- (أحق الخيل بالركض المُعار)

ومعنى ذلك لا شفقة لك على العارية: لأنها ليست لك.

١٢- (تركته على مثل خد الفرس)

معناه: تركته على طريق واضح مستوٍ، ويضرب هذا المثل لمن سهل سبيله.

١٣- (أشهر من الفرس الأبلق)

وذلك لقلة البلق في العراب. فهو إذا كان في الضوء ظهر سواده، وإن كان في الظلام ظهر بياضه، وكان الرئيس من رؤساء العساكر إذا أراد أن يشتهر في المعركة ركب فرساً أبلق، ليس مشهرة.

١٤- (إن الجواد عينه فراره)

الفرار: النظر إلى أسنان الدابة لمعرفة سنها، ويضرب هذا المثل لمن يدل ظاهره على باطنه فيغني عن اختباره، وقيل المعنى: أن المعاينة تغني عن الفرار.

١٥- (الخيل تعرف ركابها)

الجواد بقوة إدراكه وشدة إحساسه يعرف حال راكبه هل هو من أهل الفروسية والاعتياد بركوب الخيل فيستذل له ويعطيه من نفسه ما يريد، أو ليس من أهل الفروسية والاعتياد بركوب الخيل فيستصعب عليه ولا يمكنه مما يريد.

obeikandl.com

١٦- (الخيل من الخيال)

هذا المثل يضرب للخيال الذي يجيد أو لا يجيد فن قيادة الخيل في الميادين والسباقات، والأصل في الخيل أنها تستجيب لأوامر خيالها، فالجيادة فيها والعيب في غيرها.

١٧- (الخيل ميامين)

حكايته هذا المثل أن رجلاً من بجيله نافس رجلاً من قضاعة، فأتى البجلي بفرس، فركبه من قبل وحشيه (أي من جانبه الأيسر)، والفرس يركب عادة من جانبه الأيمن، فقال القضاعي: «أست لم تعود المجمر»، فقال البجلي: «الخيل ميامين» أي من أي جنب جئتها فهو يمين، واليمين: ذو اليمن والبركة، ويضرب هذا المثل للشيء تحمده من أي جهة جئته.

١٨- (إن الدليل أثر الفوارس)

المثل لقيس بن زهير العبسي قاله حين وقع على أثر فرس كان يتبع أثر صاحبها، وهذا المثل يضرب فيما يستدل به على الشيء.

١٩- وأنشد أبو عمر بن عبد البر، في التمهيد لابن عباس رضي الله تعالى عنهما:

آحبوا الخيل واصطبروا عليها
فإن العز فيها والجمالا
إذا ما الخيل ضيعها أناس
ربطناها فأشركت العيالا
نقاسمها المعيشة كل يوم
ونكسوها البراقع والجلالا

٢٠- قيل: لبعض الحكماء: أي الأموال أثرى؟ قال: فرس يتبعها فرس في بطنها فرس.

٢١- وقيل: ثلاث من سعادة الإنسان: «امرأة حسناء، ودار وراء، وفرس مربوط بالفناء».

٢٢- وقال أكثم بن صيفي: «عليكم بالخيل فآكرموها فإنها حصون العرب».

ج- حـــداء الخـيل

وهو عبارة عن أغاني ينشدها الفرسان على ظهور الخيل إما قبل الحرب لشحذ الهمـة وإدخـال الرعب في قلوب الأعـداء، أو بث الحـماس في نفـوس المحـاربين وتحريضـهم على الإقـدام والاستبسـال أو بعـد العودة بالغنيمة، أو عند موارد الماء للتسلية وعدم الإحساس بالوقت والتعب .

مثل قول الحادي:

عـــمي شـــرالي مـــهـــرتي

لا يـا بعـــد كل الـعـــمـــام

الـيـــــوم أروي حـــــربـتي

وأضـــرب على وسط الكتـــام

ويقول الحادي أيضا:

يا مـــهـــرتي خـــبي خـــبـــيب

والـهـــــرف لا يـطـري عـلـيك

ويروى أن أول من سن الحداء مضر بن نزار بن معد قد سقط عن ظهر بعير في بعض أسفاره فانكسرت يداه فحملوه وهو يقول: (وايداه، وايداه) وكان أحسن خلق الله صوتاً، فأصغت الإبل إليه، وأسرعت في السير، فاتخذه العرب حداء.

ويقول ابن خميس: «هذا الدور خاص بصهوات الجياد تلتئم وتمشي الخيزلى، ويجعل راكبوها يتجاذبون أصواتهم به، وهو لا يكون إلا في الفخر والحماسة وحيث الكر والفر ...» أ. هـ.

والحداء من بحر الرجز، وسمي رجزاً؛ لأنه يقع فيه ما يكون على ثلاثة أجزاء. وأصله مأخوذ من البعير إذا اشتدت إحدى يديه، فبقي على ثلاث قوائم.

obeikandl.com